مقدمة

صديقنا « الدكتور محمود أحمد الحفنى » موسيقى بفطرته ، فلقد رأيناه ، وهو يدرس الطب ، قبل أن يدرس الموسيقى ، فى مطلع الحركة القومية المصرية ، يؤلف الأناشيد الوطنية ويلحنها تلحينا حماسياً ملتهباً ثم ينطلق بها فى المجتمعات يتغنى بهـا الطلبة وجماهير الشعب المتحمسين .

والعلاقة بين الموسيقى والطبيعة علاقة باطنة أكثر منها ظاهرة ، وهذا الشعور العميق فى حنايا الضلوع قديم ، متغلغل واسع التغلغل فى النفوس عبّر عنه « كونفوشيوس » فى كلمات قليلة المبنى بليغة المعنى حين قال : أيتها الموسيقى ! يا لسان الطبيعة المقدس ! أسمعك تناديني فألبي وأهرع إليك » .

كذلك كانت الموسيقى فى نفس « الحفنى » بالغة الأثر فغلبته وغيرت مجرى حياته ، فلبى وهجر دراسة الطب ، واندمج فى معاهد الموسيقى يدرس علومها وفنونها وآدابها وفلسفتها حتى بلغ غايتها ونال أعلى إجازاتها .

فإذا رأيناه ، بعد ذلك ، يتفرغ لتصنيف الكتب فى علوم الموسيقى وفنونها المختلفة ، ويُعنى عناية كبرى بدراسة الشخصيات الموسيقية الممتازة ، والعباقرة اللامعين فى سماء الموسيقى ، فإنما ليجزيهم

من الوفاء ما يستحقون أو بعض ما يستحقون . فهو قد درس حياة « موتسارت » وصنف فى تلك « المعجزة » كتابا ألم فيه بنشأته وحياته وإنتاجه الفنى وعبقريته الخالدة بما لا مزيد بعده لباحث ، ولا غنى عنه لدارس .

وهو اليوم يطالع القراء بدراسة أخرى لبيتهوفن ... ذلك الموسيقار الذى أثرت حياته فى تطورات الموسيقى ، بل وفى المجتمع ، ذلك بأنه كان أسرع الناس إحساساً بنزعات المجتمعات ، فلم ينفق عاطفته الموهوبة فى ناحية واحدة من مراميها وأغراضها ، بل شمل مناحى حياتها جميعا .

من الحق أن نقول : إن بيتهوفن كان مؤلفاً موسيقياً مثالياً (Classic) ولكنه أيضاً كان مؤلفا عاطفيا (Romantic) وكان فى كلتا الحالتين مبدعا مبتكرا . والموسيقى العاطفية لغة تحسها المشاعر ، ولا يستطيع غير قليل من أهل النبوغ أن يعبر بها تعبيراً مبيناً أبلغ من نطق اللسان وأسلوب الحديث .

ومن الواضح أبين الوضوح أن « بيتهوفن » يتزعم هذا القليل من النبغاء ، بل كأنى به والدهم . فأعماله الباهرة فى هذه السبيل تراث فنى قيم توارثه الأعقاب وحرصت عليه الأحقاب ، وحقق للناس أوفى نصيب من صور الحياة . وحسبنا مثالا رباعياته والسوناتات والسمفونيات الخالدة ، فكلها متألقة فى سماء الفن ، مرتقية إلى كمال لا يدرك شأوه . وإنك لتجتلى فى هذا التراث أثر ارتقاء الموسيقى العاطفية ونتائجها المثمرة .

نشأت الموسيقى العاطفية فى المانيا لخمسين ومائة عام خلت ، وما زالت بها إلى اليوم قوية الأثر . ومن بين رجالها على سبيل المثال :

١ — ريجر (١٨٧٣ — ١٩١٦) وكان مؤلفاً موسيقياً بارعاً لحوادث التاريخ المشهورة .

٢ — مالر (١٨٦٠ — ١٩١١) وقد ملأ ذكره أرجاء الدنيا كمؤلف موسيقى ورئيس فرقة نعبت « السنفونى » من ألف عازف .

٣ — فاجنر (١٨١٣ — ١٨٨٣) الذى نجح فى محاولاته المضنية للتوفيق بين الموسيقى والدراما ومناظرها المسرحية .

وإذن فلا ريب أن « بيتهوفن » كان فجر هذه الموسيقى .

لقد كانت موسيقى « بيتهوفن » وليدة طبيعته فكانت لذلك جزءاً كاملا من حياته ، حتى لا تخطىء إذا قلت : « موسيقى بيتهوفن هى بيتهوفن » . لذلك كان معتزاً بهـا ، ناقما على من لا ينزلها منزلتها العليا من النبل والشرف

وما أحب أن أدخل فى تفصيل حياته وذكر مناحى عبقريته ، ولا أن أتعرض لنبوغه المعجز حين أدركه الصمم ، فكل هذا عرض له صديقنا « الدكتور الحفنى » فى دراسة تحليلية وإسهاب ، وأسلوب قصصى يأخذ بالألباب ، وهو الأسلوب الحديث فى البحث والتحليل وإنما الذى أحب أن أقرره صادقا هو أن هذا الكتاب سيكون موضع دهشة وإعجاب لأولئك الذين لم يعرفوا « بيتهوفن » إلا سماعا ، ذلك بأن عبقريته شغلت الدنيا بأسرها .

عز العرب على